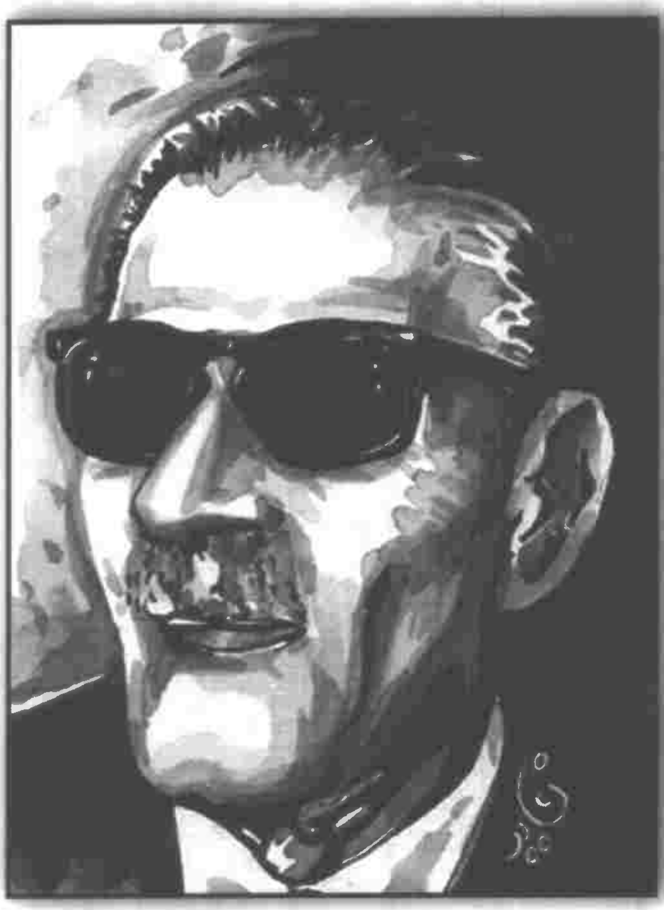

■ طه حسين ■

مؤرخ الحياة الأدبية فى الإسلام

لم يكن التاريخ بجاحد لفضل الدكتور طه حسين حين سجل فى صفحاته أن هذا المفكر قد أضاء تاريخ صدر الإسلام بنظرات نافذة، ولوامع وضاءة، مقدمًا كنوزاً للتراث الإسلامى، محتها زمنًا الأساليب المستعصية القديمة.

ولم يكن أيضاً هذا التاريخ بجاحد لفضل عميد الأدب العربى.. حين سجل فى صفحة من صفحاته.. أنه قد دعا فى ثلاثينيات هذا القرن إلى مشروع من أسمى وأجلّ المشروعات الثقافية فى تاريخنا الثقافى المعاصر.. وهو مشروع إعادة كتابة التاريخ الإسلامى على نحو يتقبله الإنسان المعاصر الذى انصرف عن هذا التاريخ بأقلام أصحابه العرب؛ ليقرأ مادة كتبها غير العرب وفق سياسات معينة تخدم أغراضًا معينة، كما رأينا فى مدخل هذا الكتاب..

عندئذٍ اتفق الدكتور طه حسين مع اثنين من زملائه فى هيئة التدريس بالجامعة، وهما الأستاذ أحمد أمين، والأستاذ عبد الحميد العبادى، على كتابة تاريخنا الإسلامى منذ فجره إلى أواخر عصر الدولة الأموية، بحيث يختص كل من الثلاثة بدراسة جانب يجيده ويتقنه. يختص الدكتور طه حسين بكتابة جانب الحياة الأدبية فى الإسلام، ويختص الدكتور أحمد أمين بكتابة جانب الحياة العقلية والفكرية فى الإسلام، ويختص الأستاذ عبد الحميد العبادى بجانب الحياة السياسية فى الإسلام.

والأمر الذى لا يستطيع أن ينكره حتى الجاحدون لفضل هذا الرجل، أن هذا المشروع الذى كان هو صاحب فكرته لم يكتف بتقديم عشرات الكتب للثلاثة

فحسب، وإنما تجاوز هذا العدد إلى كتب أخرى قدمها أساتذة وعلماء من أفذاذ جيلهم.. وفتح الباب على مصراعيه حين اهتم بإعادة كتابة التاريخ الإسلامى لأجيالٍ متعاقبة إلى يومنا هذا، مازالت تقدم للمكتبة الإسلامية عطاءً وفيراً وبأساليبَ مختلفة كلها تقرّب هذا التاريخ من القارئ وتجلو الكثير من صفحاته.

ومن هذه الزاوية.. من زاوية دعوة الدكتور طه حسين لإعادة كتابة التاريخ الإسلامى بشكل مقبول وبمنهج علمى من ناحية، واستمراره فى الكتابة الإسلامية ذات الطابع المميز حتى السنوات الأخيرة فى حياته من ناحية أخرى.. كانت أعمال الدكتور طه حسين الإسلامية تقفز فى المقدمة بين الأعمال العظيمة، عندما يتصدى أى باحث أو دارس لرصد هذا التاريخ، ومن كتبوه فى مصر، أو خارجها.

وإذا كان الدكتور طه حسين وأصحابه قد اتفقوا فيما بينهم عند الشروع فى كتابة التاريخ الإسلامى.. على طريقة أو أسلوب فى تناول المادة الإسلامية التى تزخر بها المكتبة العربية والأجنبية على حدٍ سواء.. وهو بعينه المنهج، فإن الدكتور طه حسين لم يلوّح بكيفية هذا المَنهج الذى اتبعه فى تناوله للمادة الإسلامية التى أمامه، على عادة ما يفعل بعض المؤرخين فى كتاباتهم.. ولاسيما إذا كانوا فى الأصل أدباء أو مفكرين. ومن هنا أصبح القيام بعمليات من الاستنباط والاستدلال للتعرف على هذا المنهج من كتاباته الإسلامية [١] والاستئناس بما كتب عنه من دراسات [٢]، إلى جانب ما شرف به صاحب هذه السطور من اهتمام ومتابعة لفكر الدكتور طه حسين [٣].

***

بادىء ذى بدء.. كلنا نعرف أن شخصية الدكتور طه حسين.. قد تميزت بسمتين بارزتين.. هما سمة الأدب والنقد، فهو أديب فنان إلى جانب كونه ناقدًا حساسًا. ومعنى هذا أن شخصيته جمعت بين فنية الأدب، وحساسية النقد. وبالطبع فإن سمات كهذه لابد وأن تلقى بظلالها على أى عمل فكرى يقوم به،

حتى وإن كان إعادة كتابة التاريخ الإسلامى. لابد أن يتعامل مع هذا التاريخ بفنية الأديب الذى يتناغم مع الأحداث، وبشخصية الناقد الذى يمايز بين حادثة وأخرى - دون أن يعتدى على سير الأحداث - حسب إحساسه بالأحداث التاريخية. . هذا من ناحية.

ومن ناحية ثانية. . فإن التاريخ حسب التعريف القديم الصحيح. . هو فى مجموعه علمٌ من العلوم أو بالأحرى نوعٌ من النقد والفن. فمن الواضح أن جانبًا كبيرًا لا يستهان به من إنتاج الدكتور طه حسين الفكرى - بوجه عام - يدخل فى نطاق التاريخ.

ولهذا فإن المتابع لمراحل فكر طه حسين يذهب إلى القول بأن ما كتبه أيام شبابه عن الشعر العربى، سواءٌ فى الجاهلية أو الإسلام، هو نوعٌ من التاريخ. وأن ما كتبه عن بلاد اليونان القديمة فى مظاهرها الاجتماعية والأدبية والدينية نوعٌ من التاريخ، وما كتبه بعد أن بلغ سن النضج الفكرى وخصصه لأصول الأدب العربى القديم وتطوره هو نوعٌ ثالث من التاريخ، وما كتبه عن مشاكل التعليم والثقافة فى مصر والعالم العربى يعدّ فى جوهره نوعٌ رابع من التاريخ. . وهكذا نجد فى كل كتابات الدكتور طه حسين الاستئناس بالتاريخ.

ولعلنى أذكره بهذه المناسبة يوم أن استمع إلى واحدة من هذه الدراسات التى كتبت حول كتابه «فى الشعر الجاهلى»، فنصبت رئيسًا للوزراء فى مصر على صفحاتها غير رئيس الوزراء الفعلى. وبنى الكاتب على تصوره هذا جانبًا من دراسته. يومئذٍ علق الدكتور طه حسين قائلاً: «كان حريًا بهذا الكاتب أن يرجع إلي التاريخ ليتأكد من صحة الأحداث. . قراءة التاريخ واجب يضاف إلى واجبات الناقد عندما يرصد الحركة الأدبية، أو الأديب عندما يبدع فنًا يقال عنه إنه أدبًا. . »(٤).

وعلى مستوى التطبيق نجد الدكتور طه حسين صادقًا فى هذا القول بالنسبة لإنتاجه الأدبى المحض، فيما جادت به قريحته من إبداع فى ذكرياته الحميمة،

والتى تضمنتها أجزاء رائعته «الأيام»، نستشعر نوعًا من التاريخ ـ على الرغم من أن إبداعه الفنى فى كتابته ـ يجعل القارئ ينسى أنه أمام صفحات من تاريخنا الثقافى والاجتماعى والسياسى.

وفى تتبعنا للفكرة الإسلامية عند الدكتور طه حسين، حيث إنه اختار الحياة الأدبية فى الإسلام، نجده مؤرخًا. . حين نتناول بالدراسة السيرة النبوية الشريفة فى كتاب «على هامش السيرة»، وكان مؤرخًا فى ترجمته للخلفاء الراشدين الأربعة «أبو بكر وعمر وعثمان وعلى» رضى الله عنهم، وكان مؤرخًا أيضًا حين تناول بالدراسة المجتمع الإسلامى بعد الرسول الكريم فى كلٍّ من «مرآة الإسلام»، و«الوعد الحق».

وإذا كنا قد توصلنا إلى أن الدكتور طه حسين مؤرخٌ. . فلا يبقى أمامنا إلا تفاصيل وسمات وملامح منهجه فى التاريخ الإسلامى.

فالدكتور طه حسين حين اختار الحياة الأدبية فى الإسلام، فمعنى ذلك أنه يريد أن ينظر إلى المادة التاريخية التى أمامه نظرة الأديب الفنان، الذى تجذبه وتبهره وتؤثر فيه الصورة الجميلة. ولعل هذا ما أراد قوله صراحة وليس ضمنًا. فى تقدمته للجزء الأول من كتابه «على هامش السيرة»(٥) حيث قال: «إلى هذا النحو من إحياء الأدب القديم، ومن إحياء ذكر العرب الأولين. . قصدت حين أمليت فصول هذا الكتاب، ولست أريد أن أخدع القراء عن نفسى ولا عن هذا الكتاب. فإنى لم أفكر فيه تفكيرًا، ولا قدرته تقديرًا، ولا تعمدت تأليفه وتصنيفه كما يتعمد المؤلفون. .إنما دفعت إلى ذلك دفعًا، أكرهت عليه إكراهًا، ورأيتنى أقرأ السيرة فتمتلئ بها نفسى، ويفيض بها قلبى، وينطلق بها لسانى، وإذا أنا أملى هذه الفصول وفصولاً أخرى أرجو أن تنشر بعد حين.

فليس فى هذا الكتاب إذًا تكلف ولا تصنع، ولا محاولة للإجادة، ولا اجتناب للتقصير. وإنما هو صورة يسيرة طبيعية صادقة لبعض ما أجد من الشعور حين أقرأ هذه الكتب، التى لا أعدل بها كتبًا أخرى مهما تكن، والتى لا أملّ

قراءتها والأنس إليها، والتى لا ينقضى حبى لها وإعجابى بها، وحرصى على أن يقرأها الناس، ولكن الناس مع الأسف لا يقرءونها، لأنهم لا يريدون أو لأنهم لا يستطيعون. فإذا استطاع هذا الكتاب أن يحبب إلى الشباب قراءة كتب السيرة خاصة، وكتب الأدب العربى القديم عامة، والتماس المتاع الفنى فى صحفها الخصبة. . فأنا سعيد حقًا، موفق حقًا لأحب الأشياء إلىّ وآثرها عندى.

وإذا استطاع هذا الكتاب أن يلقى فى نفوس الشباب حب الحياة العربية الأولى، ويلفتهم إلى أن فى سذاجتها ويسرها جمالاً ليس أقل روعةً ولا نفاذاً إلى القلوب من هذا الجمال الذى يجدونه فى الحياة الحديثة المعقدة، فأنا سعيد موفق لبعض ما أريد.

وإذا استطاع هذا الكتاب أن يدفع الشباب إلى استغلال الحياة العربية الأولى، واتخاذها موضوعا قيمًا خصبًا لا للإنتاج العلمى فى التاريخ والأدب الوصفى وحدهما، بل كذلك للإنتاج الإنشائى الخالص، فأنا سعيد موفق لبعض ما أريد.

ثم إذا استطاع هذا الكتاب أن يلقى فى نفوس الشباب أن القديم لا ينبغى أن يهجر لأنه قديم، وأن الجديد لا ينبغى أن يطلب لأنه جديد. وإنما يهجر القديم إذا برئ من النفع، وخلا من الفائدة. . فإن كان نافعًا مفيدًا، فليس الناس أقل حاجة إليه منهم إلى الجديد، فأنا سعيد موفق لبعض ما أريد».

وبهذه العبارة حدد الدكتور طه حسين منهجه فى التاريخ. . فمن يقرأها ويقرأ غيرها فى كتبه، يدرك على الفور أنه أمام أديب مؤرخ. . يحس فيتصور مما يحس صورة، هى جوهر التاريخ لا من تفصيله، وهى لب ما فى التاريخ الذى نحب أن نتمثله جميعًا ليكون لنا فيه الصورة المشتركة.

وقد نستشعر الدور العظيم الذى قام به الدكتور طه حسين وصحبه فى استلهامهم تاريخنا الإسلامى من بطون الكتب القديمة من عبارته التالية: «. . فأما الأدب القديم فقراءته عسيرة، وفهمه أعسر، وتذوقه أشد عسرًا. وأين هذا القارئ الذى يطمئن إلى قراءة الأسانيد المطولة، والأخبار التى يلتوى منها

الاستطراد وتجود بها لغته القديمة الغريبة عن سبيل الفهم السهل والذوق الهين الذى لا يكلف مشقة ولا عناء؟!.

ذلك إلى أن الأدب القديم لم ينشأ ليبقى كما هو ثابتًا مستقرًا لا يتغير ولا يلتمس الناس لذته إلا فى نصوصه يفرعونها ويعيدون قراءتها، ويستظهرونها ويمعنون فى استظهارها، إنما الأدب الخصب حقًا هو الذى يلذك حين تقرؤه، لأنه يقدم إليك ما يرضى عقلك وشعورك، لأنه يوحى إليك ما ليس فيه، ويلهمك مالم تشتمل عليه النصوص، ويعيرك من خصبه خصبًا، ومن ثروته ثروة، ومن قوته قوة، وينطقك كما أنطق القدماء، ولا يستقر فى قلبك حتى يتصور فى صورة قلبك أو يصور قلبك فى صورته، وإذا أنت تعيده على الناس فتلقيه إليهم فى شكل جديد يلائم حياتهم التى يحيونها، وعواطفهم التى تثور فى قلوبهم، وخواطرهم التى تضطرب فى عقولهم..». (٦)

فى هذه العبارة يكمن الهدف الذى من ورائه دعا الدكتور طه حسين إلى إعادة كتابة التاريخ الإسلامى، كما يكمن منهجه فى استلهام هذا التاريخ الذى يريد كتابته للقارئ المعاصر من الكتب القديمة، ويكمن أيضًا طريقته فى التناول.

وحيث نقترب من فكر الدكتور طه حسين.. يتراءى لنا ملامح منهجه كأديب مؤرخ، فهو فى هذا الجانب من فكره لديه مقياس يقف بتاريخ الأدب ودراساته بين العلم والفن، بحيث لا يغرق مؤرخ الأدب فى العلم أغراقًا من شأنه أن يصيب حوادثه التاريخية والأدبية بالجفاف. ولا يغرق فى الفن إغراقًا من شأنه أن يفنى الشخصيات فى ذاته وشخصيته، بل هو يتخذ فى تناوله للمادة الإسلامية طريقًا وسطًا بين العلم والفن.. بين التاريخ والأدب.. طريقًا تتفق فيه علوم اللغة والصرف والنحو والبيان والتاريخ ومناهج البحث الأدبى فى استكشاف الظواهر وحقائق النصوص الأدبية، مع ما ينبغى له من الحس الدقيق المرهف، والذوق المهذب المصفى، بحيث تتجلى شخصيته فيما ينثر من أحكام وآراء، وفيما يصور من مواطن الجمال الفنى فى الآثار الأدبية والتاريخية المختلفة.

وتأسيسًا على ذلك وضع الدكتور طه حسين لنفسه، ولمدرسته من بعده، الأصول التى ينبغى أن تبدو عليها دراساتهم، وهى أصول ترد إلى جانبين:

* جانب علمى يتصل بفحص المادة التاريخية وتحقيقها واستنباط دلالتها، مع دقة التفسير والتعليل والتحليل، ومعرفة الظروف التى أحاطت بها والمؤثرات المختلفة التى أثرت فى منشئيها، وبيان الصلات بينهم وبين محيطهم وبيئاتهم وعصورهم.

* جانب فنى يتصل بنقد هذه المادة التاريخية وتصوير شخصيات أصحابها، وما تحدثه فى نفس قارئيها من لذة، وهو الجانب الذى يحيل التاريخ إلى عمل أدبى ممتع يلذ العقل والشعور، إذ نرى من خلاله خصائص المؤرخ التسجيلى.. فشخصيته كأديب تبدو من خلال كتاباته للتاريخ، حيث ينفث فيه من روحه ونظرته وفكرته، ويجمّله بأسلوبه، ويلتقط جوانب يطويها سرد المؤرخ التسجيلى.

إلى جانب فحص المادة التاريخية، ثم نقدها، تبدأ، عملية صياغتها من جديد.. فهو حين يقوم بصياغتها يستخدم المنهج الاجتماعى فى البحث، وخاصةً إذا كانت هذه المادة التاريخية حول أشخاص. ويمكن الاستدلال على هذا المنهج الاجتماعى عند الدكتور طه حسين من عبارة فى تقديم كتابه «قادة الفكر»، حيث يقول: «الفرد ظاهرة اجتماعية، وليس من البحث القيم العلمى فى شىء أن تجعل الفرد كل شىء، وتمحو الجماعة التى أنشأته وكونته محوًا. إنما السبيل أن تقدر الجماعة، وأن تقدر الفرد، وأن تجتهد ما استطعت فى تحديد الصلة بينهما، وفى تعيين ما تطلبهما من أثر فى الآداب والآراء الفلسفية والنظم الاجتماعية والسياسية المختلفة[٧]».

بهذا المزج فى شخص الدكتور طه حسين بين العلم والفن.. بين التاريخ والأدب، وبهذه الرؤيا الاجتماعية، درس الدكتور طه حسين المادة الإسلامية وقدمها فى قوالب جديدة.

وعلى ضوء هذا المنهج.. يقدم لنا الدكتور طه حسين المجتمع الإسلامى، ويستهل تأريخه الفنى لهذا المجتمع بهوامشه على السيرة المحمدية، يتبعه بحديث عن الخليفتين أبى بكر وعمر رضى الله عنهما، ثم بحديث آخر عن الخليفتين عثمان بن عفان وعلى بن أبى طالب رضى الله عنهما، ثم حديث عن هؤلاء الرجال الذين كانوا حول الرسول الأغنياء منهم أو الفقراء، ولا ينهى حديثًا عن المجتمع الإسلامى بما فيه من أفذاذ الرجال دون أن يحدثنا عن الإسلام نفسه دين الحنفية السمحة والفطرة السليمة، وكيف أنه ساد فى الجزيرة العربية المترامية الأطراف، واستقر فى القلوب التى أغلقت أمام كل عاطفة إنسانية، والأصول والمبادئ التى ارتكن إليها هذا الدين لينتشر وليبقى.

فالدكتور طه حسين يقدم لنا فى أجزاء «على هامش السيرة» أحداثًا تدور ما بين اليونان والشام والعراق وفارس واليمن والجزيرة العربية ومصر، ويروى لنا أخبار أهل هذه البلدان فى أحاديث منفصلة متباعدة.. ابتعاد المدن وانفصال السنوات، حتى تتجمع هذه الأحاديث فى النهاية فى مكة أو فى يثرب أو فى غيرهما من المدن والبلاد، التى أعدت لاستقبال عظيم هو محمد بن عبد الله ﷺ.. ذلك العظيم الذى يتأهب لاستقباله العالم ويسعى لرؤيته ونيل الخلاص على يديه.

ومن خلال صفحات «على هامش السيرة».. نتعرف على شبان يونانيين أثينيين مازالوا يلغطون سرًا بوثنيتهم بعد أن انتشرت المسيحية فى بلادهم وأصبحت دين القيصر والدولة وعامة الناس. وسوف نتعرف أيضاً على شبان مسيحيين يخرجون من بلادهم بحثًا عن الدين الحق، يلتمسونه فيما حولهم من بلاد، ومنها هذه البلاد الصحراوية البعيدة التى لا يعرف سلطان القيصر طريقه إليها، فيصل بعضهم ويموت بعضهم الآخر. وسوف نتعرف على شبان عرب وثنيين يخرجون من أوطانهم اضطرارًا، ويتجهون إلى الشام وبيزنطة من أجل غاية نبيلة. فيصير بعضهم مسيحيين، ويعود بعضهم إلى أوطانهم مبشرين بشىء من المسيحية. وما هى إلا سنوات قليلة حتى يقدر لهم أن يشهدوا الحق فى ميلاده العظيم.

ومن خلال صفحات «على هامش السيرة» تطالعنا الأحداث الكبرى، إذ نلتقى بجيش أبرهة المتجه إلى مكة يريد بها شراً. وأى شر بعد تصميم هذا الجيش على هدم الكعبة. وهنا على أبواب مكة يرى الجيش مالم يتصور.. يرى طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل فتجعله كعصف مأكول، وتتحقق نبوءة عبد المطلب جد النبى الكريم حين دعى للدفاع عن الكعبة بوصفه سيد قريش، فقال: للبيت ربٌ يحميه. فهكذا حمى البيت رب البيت ويلتقى القارئ من خلال أسلوب الدكتور طه حسين الأخاذ بذلك الجيش المندحر، كما يدرك أن الرسول العظيم صاحب الرسالة التى ينتظرها العالم قد ولد فى نفس العام.. عام الفيل. ويا له من حدث عظيم!

يوم ميلادٍ عظيمٍ يصفه عميد الأدب العربى بعبارات تقترب لتدخل القلب، حيث يقول: «ثم يشرق الفجر، وتبسط الشمس رداءها النقى على بطحاء مكة وما يحيط بها من الجمال، ويرتفع الضحى، ويضطرب الناس فى أمورهم وقد قضوا ليلاً جاهداً غافلاً، لم يشعروا فيه بشىء، كأنه لم يكن فيه شىء. ولو قد كشف عنهم الغطاء، ولو قد أزيلت عن قلوبهم الحجب لرأوا وسمعوا، ولكن الله قد جعل لكل شىء قدراً، فهو يظهر آياته لمن يشاء، ويخفى آياته على من يشاء، وعبد المطلب جالس فى الحجرة وحوله أبناؤه وجماعة من قريش، قد أخذوا فيما كانوا يأخذون فيه من حديث. وهو يسمع إليهم بأذنيه ويعرض عنهم بنفسه، يفكر فى فقيده الذى لا يستطيع أن ينساه، وأنه لفى ذلك.. وإذا البشير يقبل عليه مسرعًا، حتى إذا انتهى إليه حيّاه، وقال: لقد ولد لك غلام فهلم فانظر إليه، فلا يسمع هذه البشرى حتى يحس أن الله قد أخلفه من فقيدة ورفق به فى مصابه، وادخر له عزّا عن محنته، فيسأل: أهو ابن عبد الله؟ فيجيبه البشير: نعم. فينهض مسرعاً، وينهض معه بنوه، ويمضون لا يلوون على شىء حتى يبلغوا بيت آمنة، فإذا دخل الشيخ ورأى الغلام أحس كأن الله قد أنزل على قلبه السكينة وجلا عن قلبه الحزن، ورده إلى غبطة وسرور بعد عهده منهما(8)».

وسنرى ونسمع من خلال «على هامش السيرة» كثيرين ممن عاصروا ميلاد ذلك العظيم أو جاءوا قبله بقليل أو بعده بقليل، ونسمع حديثًا عن النبى الكريم

منذ أن كان يتيمًا تعطف عليه أكرم الحواضن إلى أن كان راعيًا للغنم، ثم إلى أن صدع بأمر الدعوة الإسلامية فلقى فيها عداوة المعادين وحسد الحاسدين. وسنرى كيف أن النبى لا يلقى المعادين بما يكرهون ويدعوهم إلى كلمة الحق، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر. وحين يقدم المجتمع العربى القديم فى الحجاز قبيل الدعوة المحمدية وفى أثنائها والصراع بين الحق والباطل، حتى يتم على يدى صاحب السيرة النصر بدخول الناس فى دين الله أفواجا.

هكذا يحدثنا الدكتور طه حسين عن النبى ﷺ فى أجزاء «على هامش السيرة»، وكأننا أمام شريط سينمائى تتوالى أحداثه واحدة بعد أخرى، مقدمةً لنا جانبًا من المجتمع الذى ولد فيه ذلك العظيم فى الجاهلية أو فى الإسلام.

❁❁❁

وعن الشيخين أبى بكر وعمر رضى الله عنهما يحدثنا الدكتور طه حسين حديثًا طيبًا بعد أن تحدث عن النبى الكريم، فيقول: «هذا حديث موجز عن الشيخين أبى بكر وعمر رحمهما الله، وما أرى أن سيكون فيه جديد لمن أسبق إليه، فما أكثر ما كتب القدماء والمحدثون عنهما، وما أكثر ما كتب المستشرقون عنهما أيضًا. وأولئك وهؤلاء جدوا فى البحث والاستقصاء ما أتيحت لهما وسائل البحث والاستقصاء، وأولئك وهؤلاء قد قالوا عن الشيخين كل ما كان يمكن أن يقال.

ولو أنى أطعت ما أعرف من ذلك لما أخذت فى إملاء هذا الحديث الذى يوشك أن يكون معادًا. ولكنى أجد فى نفسى من الحب لهما والبر بهما ما يغرينى بالمشاركة فى الحديث عنهما..».

والدكتور طه حسين فى تاريخه للشيخين أبى بكر وعمر رضى الله عنهما، لا يكتب جريًا وراء تفصيل تاريخ الفتوحات فى عصرهما، ولا عن معجزة انتصار المسلمين على الروم، وقضائهم على الفرس، وإقامة أكبر إمبراطورية، حيث يقول: «والأحداث الكبرى التى كانت أيام الشيخين خطيرة فى نفسها، تبهر

الذين يسمعون أنباءها أو يقرءونها، فليست فى حاجة إلى أن يتكثر فى روايتها المتكثرون، ولا أن يحيطها الرواة بما أحاطوها به من الغلو والإسراف»، بل إن الدكتور طه حسين قصد من كتابه عن الشيخين هدفاً يقول عنه: «وإنما أريد إلى شيء آخر مخالف لهذا أشد الخلاف، أريد أن أعرف وأن أبين لقارئ هذا الحديث شخصية أبى بكر وعمر (رحمهما الله)، كما يصورها ما نعرف من سيرتهما، وكما تصورها الأحداث التى كانت فى عصرهما، وكما يصورها هذا الطابع الذى طبعت به حياة المسلمين من بعدهما، والذى كان له أعظم الأثر فيما خضعت له الأمة العربية من أطوار وما نجم فيها من فتن..».

إذن فحديث الدكتور طه حسين يقتصر على تصوير ملامح شخصية الشيخين الكريمين، وسوف تبهرنا شخصية أبى بكر حين يصبح أمام أعظم محنة يقابلها إنسان. وهل هناك محنة أكبر من وفاة صاحب الرسالة النبى الأعظم، وتعلق الأعين بمن يخلفه ليكون مسئولاً عن أمر المسلمين؟! وسنرى فى هذا الحديث الذى امتد ليغطى صفحات كتاب.. كيف خرج أبو بكر من هذه المحنةدون أن تضطرب لها نفسه ودون أن يجد الضعف أو الريب إلى نفسه سبيلا؟ وسنرى أيضًا كيف رد الصادقين من المؤمنين إلى أنفسهم، أو رد أنفسهم إليهم حين تلا عليهم هاتين الآيتين الكريمتين من قوله عز وجل: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾(٩).

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ..﴾(١٠).

وبقى أبو بكر (رضى الله عنه) ثابت الجنان قوى الإرادة، فكيف استطاعت طبيعته أن تثبت أمام هذه المحنة؟

على الصفحات سوف نلتقى بإجابة الدكتور طه حسين، حيث يقول: «لا جواب على هذه الأسئلة إلا ما ذكرته من قبل من أنه كان الصديق، فهو أول من أسلم من الرجال، وكان إسلامه صفوًا خالصًا قوامه التصديق العميق، والإيمان

الخالص من كل شائبة، والاطمئنان الصادق السمح إلى كل ما يحدث به النبى ﷺ، ثم إيثاره النبى على نفسه فى كل موطن، ثم البلاء الحسن كلما جد الجد واحتاج النبى أو المسلمون إلى هذا البلاء».

وعلى الصفحات نجد حديثًا للدكتور طه حسين عن عمر بن الخطاب (رضى الله عنه). . فى إسلامه، فى جهاده، فى فتوحاته، فى عدله فى إيمانه، فى مقتله بهذا اليد الآثمة. . التى حرمت الحياة حقّا وعدلاً عرف بهما الفاروق عمر.

ولعلنا ندقق النظر فى هذه الصورة القلمية التى رسمها عميد الأدب العربى للفاروق عمر (رضى الله عنه): «لم يعرف المسلمون خليفة أو مَلكًا بعد عمر، جعل بيت المال مِلْكاً للمسلمين ينفق منه على الجيوش المحاربة ويعين منه من احتاج إلى المعونة، ويوفر ما يبقى منه ليشيعه بين المسلمين رجالهم ونسائهم وأطفالهم يأخذون منه أعطياتهم فى كل عام، تسعى إليهم هذه الأعطيات دون أن يتكلفوا مشقة فى طلبها، سواء فى ذلك منهم القريب أو البعيد. وقد رأت أنه كان يحمل بنفسه المال إلى البادية القريبة من المدينة فيعطيه للناس فى أيديهم، وقد رأت كذلك أنه فى عام الرمادة كان يحمل الطعام على ظهره ويسعى به إلى الأعراب النازلين حول المدينة، وربما طبخه لهم بنفسه، ولم يعرف المسلمون مَلِكًا أو خليفة بعده عنى بحماية الذميين والرفق بهم فى أمرهم كله كما عنى بهم عمر. .

ثم لم يعرف المسلمون خليفة أو مَلكاً بعده. . عنى بأمر الدين وإقامة الحدود وتأديب الناس فى الصغير والكبير من أعمالهم، وعلّم المسلمين أن دينهم رفيقًا بهم. . حريصاً على أن تستقيم لهم أمور دنياهم وعلى أن يجنبهم ما يؤخذون به فى آخرتهم ما استطاع إلى ذلك سبيلا. . فعل هذا كله حتى بلغ منه ما لم يبلغ الخلفاء والملوك فى الإسلام وفى الأرض التى لم تسلم. فلسنا نعرف اليوم بلدًا يوفر الرزق للناس من بيت المال أو من خزائن الدولة، دون أن يمنعهم ذلك من العمل لأنفسهم وللناس، ومن التزيد فى الكسب والتوسع فى الغنى».

وحيث قدم الدكتور طه حسين الخليفتين أبو بكر وعمر (رضى الله عنهما)، فلابد وأن يقدم عثمان (رضى الله عنه)، وعلى بن أبى طالب (كرم الله وجهه). إن لم يكن قد استهل بالخليفتين الأخيرين الحديث عن الخلفاء الراشدين، فجاء حديثه عنهما سابقًا للحديث عن الشيخين أبى بكر وعمر (رضى الله عنهما).

ولعل اهتمام الدكتور طه حسين بالخليفتين عثمان وعلى (رضى الله عنهما) - ذلك الاهتمام الذى غطى كتابين كبيرين من كتبه ووعد بثالث - راجعٌ إلى أن فى عهدهما بدأت أول فتنة فى الإسلام. تلك التى انقسمت بسببها الدولة الإسلامية. وظلت منقسمة حتى يومنا هذا. ففى هذه الفترة الحرجة من التاريخ الإسلامى التى تلت مقتل عثمان بن عفان (رضى الله عنه)، انتهكت الحرمات وقضى على الخلافة الراشدة، ليبدأ ملك جديد بعد مقتل على بن أبى طالب (كرم الله وجهه).

من خلال صفحات كتابى «الفتنة الكبرى» تبرز فكرة الدكتور طه حسين لتقديم الخليفتين اللذين ورثا عن سلفيهما أبى بكر وعمر (رضى الله عنهما) أكبر إمبراطورية فى التاريخ، وعنهما حيث حدث فى عهدهما انقسام هذه الإمبراطورية انقسامًا مازال ماثلاً حتى اليوم. سوف نرى على الصفحات أكبر أزمة يواجهها خليفة جديد لرسول الله. وذلك حين قتل ابن عمر ثلاثة من البشر انتقامًا لمقتل أبيه عمر بن الخطاب (رضى الله عنه). هذه الأزمة تركزت فى سؤال على أطراف ألسنه المسلمين هو: هل يقر الخليفة عثمان بن عفان هذا التصرف فيبيح قتل النفس التى حرم الله قتلها، أم لا يقره فيقتص من ابن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب الذى أعز الإسلام بالانضمام إليه؟

ولا يجد عثمان رضى الله عنه حلاً لهذه الازمة إلا أن يدفع دية كبيرة من ماله الخاص بوصفه وليًا لأمر القاتل، ليعطيها لأهل القتيل بوصفه وليًا لأمره أيضًا. حقنًا للدماء. وسوف نلتقى بأول معارض فى الإسلام، وسوف ننبهر مع الدكتور طه حسين بأسلوب نظام الحكم فى الدولة الإسلامية، والذى أطلق عليه اسمًا

هو «النظام العربى المبتكر»، وإذا سألت الدكتور طه حسين عن كنه هذا النظام، لأجابتك صفحاته إنه لم يكن بحال من الأحوال «ثيوقراطيّا»، ولا «ديمقراطيا»، ولا«فرديّا»، ولا «ملكيّا»، ولا «قيصريّا».. إنه «عربىٌّ مبتكرٌ».

لكن هل كان هناك ما يدعو لتلك الفتنة؟ فى رأى الدكتور طه حسين أن هذه الفتنة كانت أمرًا لا مفر فيه، سواء أكان الخليفة عثمان (رضى الله عنه) أم غيره. لأنها لم تكن مسألة عثمان (رضى الله عنه)، وإنما كانت مسألة العدل الاجتماعى بين الرعية التى يتولى الرعاة أمرها.

ونلتقى أيضًا بصوت يجلجل معلنًا أن مقتل عثمان كان جريمةً، وكان فتنةً كبرى، وكان تفريقًا لشمل المسلمين إلى يومنا هذا ! ورب سائل يسأل هل كان الكتاب الأول من الفتنة الكبرى الذى يحمل اسم عثمان (رضى الله عنه) تأريخًا لولايته أو مقتله؟ وتأتيك الإجابة من بين السطور أنه لا هذا ولا ذاك بقدر ما هو دراسة النظام الإسلامى وعناصره وبيان لاستغلال النفوذ.. نعم استغلال النفوذ الذى حاربه الفاروق عمر. صفحات الكتاب الأول باختصار ليست صورة لفرد، وإنما هى صورة لعوامل وتيارات وأزمات كان يموج بها عصر الخليفة الشهيد، وهذا بعينه منهج الدكتور طه حسين الاجتماعى نظريةً وتطبيقًا.

وعلى الرغم من أن الدكتور طه حسين كان فى الفتنة الكبرى ليس مؤرخًا فحسب، وإنما هو مفكر أيضًا. على الرغم من هذا لا ينسى طبيعته كأديب وفنان.. تجذبه الصورة الجميلة.. فهو حين يسجل لتلك اللحظات التى أعقبت مقتل عثمان والمصحف بين يديه، والثوار فى داخل الدار وخارجها.. ينفعل، والصورة هنا لا تحفل كثيرًا بالخليفة المنتظر على بن أبى طالب (رضى الله عنه).. لا تحفل به كرجل الساعة وإنما تهتم هذه الصورة بأمر هذه الجموع الغفيرة من المسلمين وقد هزتها المحنة، وبأمر الدولة الإسلامية وقد استيقظت بها الفتنة. والأهم أمر هذه المواجهة الجديدة للمشاكل التى يقول عنها الدكتور طه حسين: «واجه المسلمون أثر قتل عثمان رحمه الله مشكلتين من أخطر ما عرض لهم من المشكلات منذ خلافة أبى بكر. إحداهما تتصل بالخلافة نفسها، والثانية تتصل بإقرار نظام الحكم..».

وما أروع هذا الفكر الذى صور حالة المسلمين بعد مقتل عثمان وولاية على (رضى الله عنهما). ونستمع إلى الدكتور طه حسين: «ليس غريبًا إذن أن يستقبل المسلمون خلافة على ووجوههم عابسة، وقلوبهم خائفة، ونفوسهم قلقة. ويزيد فى هذا العبوس والخوف والقلق، أن الثائرين الذين قتلوا عثمان كانوا ما يزالون بالمدينة متسلطين عليها. حتى كان الخليفة الجديد ومن بايعه من المهاجرين والأنصار لم يكونوا فى أيديهم إلا أسارى..».

سترى على الصفحات الأحداث حادة مثيرة، والخلافات مستمرة بين على وخصومه وأولهم معاوية بن أبى سفيان، والآمال شاحبة ضعيفة بين اثنين.. أحدهما: يريدها خلافة، والثانى: يريدها مُلكًا. وتكون النهاية الحزينة بمقتل رابع الخلفاء الراشدين كما قتل من قبل ثالثهم، وتنتهى الخلافة الراشدة. ويؤسس مُلك عنيف لا يقوم على الدين، وإنما يقوم على السياسة والمنفعة. وكان يظن صاحب الملك أن أمر الملك سيمضى فى طريقه وادعًا مطمئنًا مستقرًا فى بنى سفيان دهرًا على الأقل بعد أن استقام لمؤسسة عشرين عامًا. ولكن هذا الملك لم يستقر فيه إلا ريثما تحول عنه؛ لأن الفتنة لم تنقض بمقتل على (كرم الله وجه)، ولا باستقرار الملك لمعاوية، ولا بموت يزيد بن معاوية، وإنما استأنفت عنفها وشدتها بعد ذلك فعرضت المسلمين ودولتهم لخطوب ليست أقل جسامة من الخطوب التى حدثت قبل ذلك

●●●

هل انتهى حديث الدكتور طه حسين عن الدولة الاسلامية ونبيها الكريم وخلفائها الراشدين؟ بالقطع لا. فهناك رجالٌ حول الرسول.. صفوة ممتازة قامت على أكتافها الدعوة الاسلامية.. مستضعفون.. كانوا فى الأرض مردة أصبحوا بعد أن نفخ فيهم الإسلام من روحه وأشعرهم بكيانهم الإنسانى.. ذلك الكيان الذى لا يهتم ببياض وجه أو سواده، بغنى أو بفقر، بشرف مولد أو جاه منبت قدر اهتمامه بالتقوى، أو بما قدم الإنسان من خير، أو ما عمل من شر.

على أكتاف رجال حول الرسول فى مقدمتهم: «عمار بن ياسر»، و «بلال بن رباح»، و «صهيب بن سنان» تبدأ الرسالة المحمدية، معلنةً أنه قد آن الأوان لينقلب نظام مكة وقريش رأسًا على عقب.

نعم.. آن الآوان لأن يصبح «عمار بن ياسر» جنديًا من جنود النظام الإسلامى الجديد، ويصبح كل عبيد مكة ورقيقها وفقرائها رجالاً يحملون عبء دعوته، وتأسيس دولة، وقيام نظام.

«عمار بن ياسر» ذلك الصحابى الجليل الذى أبلى بلاءً حسنًا فى سبيل الإسلام وضحى تضحية عظمى من أجله.. وهل هناك أكبر من أن يضحى المرء بأبويه من أجل عقيدته؟! هكذا فعل «عمار بن ياسر»، يوم ثبت على مبدئه، فجن جنون أبى جهل فدفع بالحربة فى بطن «سمية أم عمار بن ياسر» فقتلها فكانت أول شهيدة فى الإسلام. ثم دفع قدمه فى بطن ووجه «ياسر» ذلك الشيخ العجوز فقتله.. قُتل الأبوان ليصبح «عمار» وحيدًا يتلقى العذاب وحده.

«صهيب بن سنان».. ذلك العبد الرومى الذى أسره العرب، حين ساروا مع الفرس لقتال الروم.

«بلال بن رباح» ذلك العبد الذى ما فتئ لسانه إلا أن يلهج بالإيمان والتقوى، حتى حين كادت روحه تشرف على الهلاك، ولم يجد ما يقوله والعذاب يطوى جسده، إلا أن يقول: «أحد.. أحد».

«خباب بن الأرث».. ذلك العبد المجهول النسب الذى اشترته أم أنمار الخزاعية، وأصبح عاملاً يصنع الحديد والسلاح.

«عبد الله بن مسعود».. ذلك الراعى المسكين الذى لجأ إلى أخواله بحثًا عن الرزق والعمل، فأصبح راعيًا لعقبة بن معيط.

«سلمان الفارسى».. الذى خطفه العرب وباعوه ليهودى باعه لإحدى ثريات المدينة.. وغيرهم من المتقدمين فى الإسلام، نلتقى بهم على صفحات كتاب

«الوعد الحق» حيث يعرض لهم الدكتور طه حسين بشىء من الاعتزاز بأقدارهم.. ويستهل حديثه عن هؤلاء الرجال الذين وعدهم الله ذلك الوعد الحق بالآية الشريفة: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾(١١).

وغيرهم من هؤلاء الذين عذبوا فى الأرض لتمسكهم بعقيدتهم.

وختام الحديث.. هو الحديث عن القرآن الكريم.. نحن إذن ضيوفٌ مباركون على مائدة ذلك الكتاب المبين. من خلال اختيارات الدكتور طه حسين من الآيات البينات فى كتابه «مرآة الإسلام».. وسنرى فى هذه الصفحات صورة أخرى مؤداها أن الاسلام كان ولايزال دين الفطرة السليمة، وأن لهذا الدين أصول. وأولى هذه الأصول القرآن الكريم، والثانى الحديث النبوى الشريف. وهناك علاقة بين الأصلين يحددها لنا الدكتور طه حسين: «إن القرآن يذكر الركوع والسجود، ويأتى الحديث ليحدد ذلك بالعمل والقول جميعًا». فهو يقيم الصلاة للمسلمين ويأمرهم أن يصنعوا صنيعه، وأن يقوموا حين يقوم،ويركعوا ويسجدوا ويجلسوا حين يركع ويسجد ويجلس.

وعلى هذا الأساس.. وجبت دراسة القرآن والسنة على اعتبار أنهما مصدران من مصادر الدين الاسلامى.

وسنرى إعجاز القرآن.. وأنه كلام لم تسمع العرب مثله قبل أن يتلوه النبى الكريم. فهو فى صورته ليس شعراً لأنه لم يجر فى الأوزان والقوافى والخيال على ما جرى عليه الشعر.. إنه يتحدث إلى الناس بأنباء لم يتحدث إليهم بها أحد من قبل.. يتحدث عن التوحيد فيحمده، وعن الشكر فيقدسه، وعن الله عز وجل فيعظمه، ويصف قدرته التى لا حد لها، وعلمه الذى لا غاية له، وإرادته التى لا ترد.

وسنرى أيضًا حديثًا عن السنّة، وهى كل ماثبت من سنّة محمد ﷺ قولاً وعملاً.. فكل ذلك يعدّ خلاصة تبشيره ودعوته إلى الله.

❁ ❁ ❁

هذه جوانب من الفكرة الإسلامية للدكتور طه حسين، بعدها ننتقل إلى قمة جديدة وفكرة جديدة فى الإسلام.

❁ ❁ ❁

الهوامش

(١) الرجوع إلى كتب الدكتور طه حسين فى الإسلام.
(٢) الرجوع إلى دراسات كتبها الدكتور عز الدين إسماعيل والدكتور أحمد هيكل والدكتورة سهير القلماوى ـ الثقافة ديسمبر ١٩٧٣م، ودراسات للأساتذة إبراهيم الإبيارى وكامل زهيرى ومحمود تيمور فى الهلال ـ فبراير ١٩٦٦م.
(٣) ماذا يبقى من طه حسين؟ لسامح كريم.
(٤) معارك طه حسين الأدبية والفكرية لسامح كريم.
(٥) على هامش السيرة جـ١ للدكتور طه حسين ص٦.
(٦) قادة الفكر للدكتور طه حسين ص ١٥.
(٧) على هامش السيرة جـ١ للدكتور طه حسين ص ١٦٥.
(٨) على هامش السيرة جـ١ للدكتور طه حسين.
(٩) سورة آل عمران ـ الآية ١٤٤.
(١٠) سورة الزمر ـ الآية ٣٠.
(١١) سورة النور ـ الآية ٥٥.